المبحث الأول

الإنسان سيد الوجود المشهود والقائم عليه بأمر الله

من حكمة الله سبحانه وتعالى أن الإنسان هو آخر الوافدين على الأرض ، وأنه مع ذلك استخلفه فيها ، ومكنه من تسخير مقومات حياته ، فسخر له الأرض والماء والبحر وما فوقها وما تحت الثرى جميعاً بإذنه ، وعلم الإنسان ما لم يعلم ، وهداه إلى أسرار الأشياء ، وكشف له عن نواميسها وسلمه مفاتيح نفعها ، وفى القرآن الكريم آيات بينات تؤكد هذه المعانى وتجلو الحقيقة :

يقول تعالى فى سورة هود : (هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها) .

لذلك خلق الله الإنسان ، مركباً فيه استعداداته وقدراته المتنوعة ، الفاعلة بإذنه ، ليذلل كل الطبيعة بجهده العضلى أو الذهنى ، فيحقق لنفسه وللآخرين كل ما أمكن ليد الإنسان أن تصل إليه من منافع وطيبات .

فتحقق للإنسان الخلافة فى الأرض بما وهبه الله له ، وبما اختصه به من علم وعمل ، والقرآن الكريم يذكر خلافة الإنسان على الأرض صريحة فى سورة البقرة . يقول تعالى : (وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون) .

ومعلوم أن الله سبحانه وتعالى استخلف الإنسان للنفع وليس للضرر ، وفيما هو مشروع لا فيما هو محرّم ، وفى طاعته وعزه ، لا فى طاعة الشيطان وغوايته . . وأعلم سبحانه وتعالى بنى آدم أنه لابد محاسبهم يوماً على ما استخلفوا عليه ، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ، فلا يستوى عنده الذين يصلحون فى الأرض بمن يفسدون فيها ممن استخلفهم عليها .

معنى الاستخلاف :

فى هذه الصفحات ننقل لك خلاصة ما قال به أفاضل الفقهاء . . فقد ذكروا فى كتبهم أن

الاستخلاف لغة هو إقامة خلف يقوم مقام المستخلف أو مقام الغير على شيء ما . . ومعنى ذلك أن البشر خلفاء الله ، كما أنهم قد يكونون خلفاء لغيره سبحانه وتعالى ، فهم خلفاء الله ما قاموا فى الأرض بأمره ، يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . . والله سبحانه وتعالى يمن على البشر بهذه الخلافة مذكراً لهم بأنعمه عليهم حيث يقول تعالى فى سورة الأنعام : (وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات) . فالله سبحانه وتعالى قد استخلف الإنسان فى ملكه . يقول تعالى فى سورة المائدة : (لله ملك السموات والأرض وما فيهن) . ويقول سبحانه فى سورة الجاثية : (وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه) .

أما عن معنى الاستخلاف فى الفقه :

فمعناه تمكينهم فى الأرض وتسلطهم على المقدرات فيها . والله سبحانه وتعالى يقول فى سورة الأعراف : (ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون) . ويقول عز وجل فى سورة الحج : (الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر) .

فاستخلاف البشر فى الأرض معناه أن الله جل شأنه أسكنهم الأرض واستعمرهم فيها ومنحهم حق التسلط والسيادة على ما فى الكون للانتفاع به ، وجعل ما فى الأرض عارية ينتفعون به ، والمفهوم والمعلوم أن القيام على العارية فى فقه البشر نيابة ، فالإنسان نائب عن ربه عز وجل فيما استخلفه الله فيه وما سخر له من الكون . . وهو فى خلافته ونيابته مرتبط برباط الشريعة مقيد بأحكامها فى الانتفاع والنفع بمقدرات الحياة الواقعة تحت حكمه وفى يده .

فالمعنى الفقهى للاستخلاف إذاً يكاد يطابق معناه فى اللغة . . ومنه يتبين أن مالك الملك هو الله وأن يده سبحانه فى التصرف هى العليا وأنه : يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء بيده الخير . . أما البشر فليس لهم إلا ما منحهم الله من سلطان محدود . . فهم ينفقون المال ويدعون لإصلاح الحال وحسن المآل ، وهم يحرثون الأرض ويبذرون الحَبَّ . . ثم بعد ذلك يدعون الرب ليمنحهم الثمار والطيبات من الرزق ، والله يضاعف لمن يشاء . .

والاستخلاف فى الأرض قسمان :

١ – استخلاف عام

٢ – استخلاف خاص

فالأول : بمعنى تسلط البشر على الأرض وما فيها وماعليها استعماراً لها وانتفاعاً بها بشروط الله سبحانه وتعالى فما استقاموا على أمر الله فهم عند وعد الله لهم ، ضماناً للرزق ، ومضاعفةً للخيرات وتمكيناً لهم فى الأرض يتبوءون منها حيث يشاءون . . فإن عَصَوا فما لهم من دون الله من نصير . عندئذ يبدّل الله النعمة نقمة عليهم ويُذهب دولتهم ويُذهب صَوْلَتَهم ويستخلف غيرهم . يقول تعالى فى سورة الأنعام : (ألم يرواكَمْ أهْلَكْنَا من قبلهم من قرنٍ مكّنّاهم فى الأرْضِ ، مَالَمْ نُمكّن لكُمْ وأرسلنَا السّماءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَاراً وَجَعلْنَا الأنْهارَ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهم فَأَهْلَكْنَاهم بِذُنُوبِهم وَأنْشأْنَا مِن بَعْدِهم قَرْناً آخرين .). ويقول عز وجل فى سورة الأحقاف : (ولقد مكّنّاهم فيما إنْ مكّنّاكُم فيه وجعلنا لهم سمعاً وأبصارًا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئِدتُهم مِنْ شيء إذ كانوايجحدون بآيات اللهِ وحاقَ بِهم ماكَانُوا به يَستَهْزِئُون) .

وأما الثانى : فهو الاستخلاف فى الحكم وهو فرعان : استخلاف الأفراد ، واستخلاف الدول . . والاستخلاف هنا بفرعيه مِنَّة من الله سبحانه وتعالى إذ الحاكم الحقيق فى الإسلام هو الله عز وجل وحده يقول عز وجل فى سورة يوسف : (إن الحُكْم إلَّا لله أمَرَ ألَّا تعبدُوا إلّا إيّاه ذَلِك الدِّينُ القيِّم) ويقول فى سورة آل عمران : (يقُولون هلْ لنا من الأمر منْ شيءٍ قلْ إنَّ الأمر كلّه لله) . ويقول تعالى فى سورة آل عمران أيضاً : (ماكان لبشرٍ أنْ يُؤتِيَهُ اللهُ الكتابَ والحكم والنبوةَ ثُم يَقُول للنّاسِ كُونوا عِباداً لِى منْ دُونِ الله ولكنْ كونُوا ربانِيين بما كُنتم تُعلمون الكتابَ وبما كُنتم تَدْرسون) فالحكم إذاً لله وليس لفرد أو أسرة أو طبقة أو حزب أو جماعة أو أمة دون غيرها .

أما البشر فمستخلفون فى الحكم . . يقول تعالى فى سورة القصص : (ونُريدُ أن نَمُنَّ عَلَى الذِينَ اُستُضْعِفُوا فى الأرضِ وَنَجْعَلَهم أئِمة ، ونَجْعَلَهم الوارِثين) . فاستخلاف الأفراد هو الاستخلاف فى الرئاسة ، وقد يسمى المستخلف خليفة كما سمى داود عليه السلام ؛ (يا دَاود إنَّا جَعلنَاك خَلِيفَة فِى الأرْضِ فاحْكُم بَيْن النّاسِ بالحقِّ ولا تَتَّبع الهَوى فيضلّك عن سبيل الله ، إنَّ

الّذين يضِلون عَنْ سَبِيل الله لَهُم عَذَابٌ شديد بِمَا نَسُوا يومَ الحِسَاب) .

كذلك قد يُسمى المستخلف إماماً كما سمى إبراهيم عليه السلام ، وبعض رؤساء بنى إسرائيل ، قال تعالى فى سورة البقرة : (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكَلِماتٍ فأتمهنَّ ، قال إنِّى جاعلك للنّاس إماماً قالَ ومِنْ ذرّيتى قَال لاَيَنَال عهدى الظَّالِمين) . وقال تعالى فى سورة الأنبياء : (وَجعلنَاهم أَئِمّةً يهدُون بأَمْرِنَا وأَوْحَينَا إِلَيهم فِعْلَ الخَيْراتِ وَإقام الصلاةِ وإيتاء الزكاَةِ وكَانُوا لَنَا عَابِدِين) .

وأيضاً قَدْ يُسمَّى المستَخْلف مَلِكًا ، قال تعالى فى سورة المائدة : (وإذ قال مُوسى لقومِه اذكُرُوا نعمةَ الله عَلَيكُم إذْ جَعَلَ فيكُم أنْبِياء وجَعَلَكُمْ مُلُوكًا ، وآتاكُم ما لَمْ يُؤت أحداً مِنَ العَالَمِين) .

ولأن هذه كلها صور لخلافة الإنسان ، فقد رأينا الإسلام يستعمل دائماً لفظ الخلافة بدل لفظ (الحاكمية) ، فالحاكم لفظة خاصة بالله وحده ، أما من قام بالحكم فى الأرض بالدستور الإسلامى ، فإنما يكون خليفة للحاكم الأعلى سبحانه وتعالى . وهذا الخليفة لا يتولى إلا ما ولاه المستخلف من أملاكه وشئون عبيده نيابة عنه .

كذلك فإن الله سبحانه قد وعد جميع المؤمنين بالاستخلاف ، وهذه الخلافة التى أوتيها المؤمنون خلافة عمومية لا يستفيد بها فرد أو أسرة أو طبقة أو حزب كما سبق القول ، بل إن كل مؤمن يعد عند الله مستخلفاً فيما يملك ، مسئولا فيما يرعى أيًّا كانت وظيفته وشأنه وعمله . .

ومن واجبات المستخلفين فى الأرض أمماً كانوا أو أفراداً ما ذكرته الآية ٤١ من سورة الحج . . يقول تعالى : (الذين إنْ مكَّنَاهُم فى الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وآتوا الزَّكَاة وأَمَرُوا بالمعْرُوفِ وَنَهوا عَنِ الْمُنْكَر ولله عَاقِبة الأُمُور) .